الفصل العاشر

الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا (٨ إبريل سنة ١٩٠٤م)

وقع في سنة (١٩٠٤م) حادث سياسي خطير كان له أسوأ الأثر في اتجاه المسألة المصرية، وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية، ونعني به العهد المعروف «بالاتفاق الودي» المبرم بين فرنسا وإنجلترا في (٨ إبريل سنة ١٩٠٤م).

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على إثر انسحاب فرنسا من فاشودة، فرأى بعض رجال السياسة في كلتا الدولتين أن يسعوا في إزالة أوجه الخلاف بينهما، لكي تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ في الازدياد في أوربا والعالم، والذي كان يهدد مصالح الدولتين، وكان للملك «إدوارد السابع» الذي تولى عرش إنجلترا سنة (١٩٠١م) دخل كبير في توجيه هذه السياسة، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا، واعتبرت زيارته لباريس سنة (١٩٠٣م) فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين، وأخذت الحكومتان في تسوية المسائل المختلف عليها بينهما، وأسفرت مفاوضاتهما عن إبرام «الاتفاق الودي» بينهما في (٨ إبريل سنة ١٩٠٤م)، وصار هذا الاتفاق عاملًا مهما في اتجاه السياسة الدولية؛ إذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا والروسيا لمقاومة التحالف الثلاثي بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق؛ فقد أعلنت إنجلترا في المادة الأولى منه بأنه «ليس في نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر»، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها «بأن لا تعرقل عمل إنجلترا في هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأي صورة أخرى». وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا في مراكش، وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوي المرافق للاتفاق والمحتوي على الضمانات التي رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصري. وأهم هذه الضمانات تخصيص ضرائب الأطيان لخدمة الدين العام

بدلًا من الإيرادات المختلفة التي كانت مخصصة لها من قبل، وهي السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية والجمارك وأربع مديريات، وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطيان إلى ما دون أربعة ملايين جنيه في السنة إلا بعد موافقة الدول، وفي مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطي المتوفر في صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تتصرف فيه كما تشاء، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية مسندة إلى عالم فرنسي، وتتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي تمتعت بها في الماضي، وصرحت الحكومة البريطانية في الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكي لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين في خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الإنجليز بها، ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر، وعدولها عن مطالبتها بالجلاء، وتبدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح الحماية التي انتحلتها إنجلترا على مصر؛ لأنها تعاقدت عنها وعن شئونها المهمة دون دخل لها، واتفقت عليها دون رضاها أو علمها، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية.

تأثير الاتفاق في مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التي اتفقت عليها الدول الأوربية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها، وكان من نتائجه أن قوى مركز إنجلترا في مصر، وظهر تقرير اللورد «كرومر» في (إبريل سنة ١٩٠٤م) فبدت فيه روح السيطرة، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف، وطعن في المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتي. وكان من نتائجه المعنوية أن رجح في نفوس الخاصة كفة اليأس، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية، والانصرف عن متابعة الحركة الوطنية؛ إذ رأوها تتعثر في طريقها ولا تصادف نجاحًا، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في الانضواء تحت لواء الاحتلال، فجنحوا لسياسة الخضوع والاستسلام

وتمليق الإنجليز، وابتغاء الزلفى لديهم، وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة.

أثر للاتفاق في نفس المترجم

أمَّا «مصطفى كامل» فلم يتراجع أمام الاتفاق، ولم يتزعزع يقينه في الجهاد؛ لأنه كان قد نفض يده عن مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة (١٨٩٨م)، تلك الحادثة التي أدت إلى انسحاب فرنسا فعلًا أمام إنجلترا وتركها تفعل ما تشاء في وادي النيل، وما كان اتفاق سنة (١٩٠٤م) إلا توكيدًا رسميًّا لما سارت عليه فرنسا فعلًا بعد حادثة فاشودة، فلا غرو أن قابل الفقيد هذا الاتفاق بالثبات والجلد، ومضى جهاده لا يلوي على شيءٍ، وقد كان الحادث السياسي امتحانًا جديدًا لعقيدته وثباته، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود، ثابتة كالجبال، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة، واستثار في النفوس من جديد روح الأمل والجهاد.

كتب في هذا الصدد[١] يقول مخاطبًا المصري:

«انظر إلى الشعوب التي قد أصابها ما أصاب شعبك؛ تجد البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكرًا كل يوم -بل كل لحظة- في بولونيا، يذكر تاريخها ويبكي أيامها الخالية، ويربي ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس هو وبقية أفراد أُمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة، والأيرلندي وقد عارض إنجلترا في ضغطها على بلاده، وسلبها لحقوقه؛ واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ورد الأراضي الأيرلندية إلى أصحابها الأصليين، وانظر إلى غيرهم وغيرهم، لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الأخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالي

(١) «اللواء» عدد ١٨ إبريل سنة (١٩٠٤م).

والعمل الكبير إلا بالشعور الوطني، فكل عامل على إطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه، وكل داع إليه مجد في سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقي الخالد».

خطبة رياض باشا

في احتفال مدرسة محمد علي الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الإنجليزي الفرنسي: إنَّ طبقة الخاصة من الأمة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل، والانصراف إلى المنافع الشخصية، وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق في الاحتفال بإنشاء مدرسة محمد علي الصناعية؛ ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالإسكندرية أقامت احتفالًا كبيرًا يوم (٢٣ مايو سنة ١٩٠٤م) لوضع الحجر الأساسي لهذه المدرسة، وقد رأس الخديوي عباس هذا الاحتفال، فعظم شأنه، وصارت له صبغة رسمية، واتجهت أنظار الناس إلى ما يجري فيه، وألقى رياض باشا أمام الخديوي خطبة امتدح فيها اللورد كرومر، لغير مناسبة، وقد كان معتذرًا لعدم حضور الاحتفال، كما امتدح الاحتلال؛ مما كان له وقع أليم في النفوس؛ إذ قال ضمن خطبته بين يدي الخديوي ما يأتي:

«جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل لتغيبه عن مصر. كلٌّ يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد، وبالأخص ما له من اليد الطولى في كل ما له مساس بالمصالح والمنافع العمومية، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا، وهي التي كانت لنا معوانًا، بل متممًا ومكملًا لهذا المشروع، فحقٌّ علينا أن نعرف له هذه المبرة، ونقدم لجنابه واجب الشكر ونثني عليه أطيب الثناء، ولا نبرح أن نترجاه بألا يترك هذا المولود وهو في المهد صبيًّا، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه، إلى أن يتربى ويبلغ أشده ويصير رجلًا قويًّا يقوم بأود نفسه.

مولاي! اسمح لي أن أتكلم بما يخالج ضميري بحرية، إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى مجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيرًا كليًّا، واتخذت لها مجرى جديد نحو التقدم والترقي وبث العلوم والمعارف وانتشارها في كل بقعة من بقاع البلاد، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضًا، لا نشك ولا نرتاب في أنها أثر من آثار هذا الانقلاب، فلا حاجة بنا إلى أن ندخل في موضوع الشرح والتأويل، ولا البحث والتدقيق في علل الأمور ومسبباتها؛ بل نكتفي الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس، وما نحن عليه اليوم، ونهنئ أنفسنا ونتهلل بشرًا ونسجد لله شكرًا على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر».

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة؛ إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التي تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء في ذلك العصر، وهي الروح التي ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال لرسوخ قدمه في البلاد، هذه الروح التي كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو إلى مقاومة الاحتلال، فلا غرو إذ ثارت نفسه لخطبة رياض باشا التي كانت إهانة كبرى للشرف القومي والحركة الوطنية، وما كان يمكن لمصطفى كامل -وهو حامل لواء الوطنية- أن يدع هذه الروح تنتشر في النفوس فتميت فيها الشعور الوطني وروح الجهاد، فحمل على الخطبة حملة صادقة أيده فيها الرأي العام تأييدًا قلبيًّا، وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية واتزانًا واعتدالًا في لهجتها؛ قال فيها:

«يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا في كل الحوادث بميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية، وأثنينا على أشخاص لا نميل إلى بعضهم، واستحكم النفور بيننا وبين البعض الآخر، وأطريناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة

لاعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا، ونعمل لرفعة شأنه وإعلاء قدره لا للتشفي والانتقام. وإن الواجب الأول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجري قلمه لصالح الوطن أن يكون منصفًا عادلًا، لا يبخس أحدًا حقه؛ لما في ذلك من التشجيع على الفضائل والأعمال النافعة والتنفير من الرذائل والنقائص.

ويعرف أصدقاؤنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره في حكومة البلاد، وأننا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها في مساعيها الجليلة التي قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين، ولكن لم يكن يدور في خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى ومساعيها الحسان ليتملق الاحتلال والمحتلين، ويشهر السلاح ليقتل به العواطف العالية، لا ليستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه.

إن دولة رياض باشا قال ما لم يقله مصري منذ اثنين وعشرين عامًا، وطعن الأمة طعنة قتالة، وسخر من أبناء وطنه جهارًا، وانتهز فرصة هذا العيد الوطني المصري ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة، وكيف يكون التناهي في تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيِّعه وسالبيه.

إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التي يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء، فاحتفال أول أمس لم يكن ميدانًا لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم، ولو كان يبتغي شكره على مائة الجنيه التي تبرع بها لمدرسة محمد علي الصناعية، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلنه، ولكن ليست هذه الأقوال مما يقال للشكر والثناء، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ، فلم يذكروا مثل جنابه؟ وإذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق بهذا الثناء الهائل، فكيف نسى دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوي باشا) ولم يشر إلى عمله العظيم بكلمة واحدة؟ أليس هو الذي أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين في أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه

الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم وإعلان السياسة التي طالما أنكرها وتبرأ منها، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره في حفلة وداع السير «إلدون جوست» أولًا، وأقواله عن عميد الاحتلال في حفلة مدرسة محمد علي ثانيًا، وتجنبه ذكر المنشاوي باشا لكراهة جناب اللورد له ثالثًا، دلائل كافية على ما يريده من التحبب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه».

وقد ثار الرأي العام على رياض باشا لخطبته، وانهالت رسائل الاحتجاج ضده في الصحف من مختلف الجهات، من الإسكندرية حتى أسوان، ودلت هذه الحركة على يقظة الروح الوطنية في النفوس واستنكارها سياسة التملق للاحتلال وتمجيده.

خطبة الفقيد بالإسكندرية (٧ يونية سنة ١٩٠٤م)

كان الموقف السياسي يستدعي خطبة من خطب الفقيد يحيي فيها العزائم ويحفز النفوس إلى الجهاد، رغم الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الذي فتَّ في عضد الكثيرين وبخاصة بعد خطبة رياض باشا التي أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال.

فألقى خطبة وطنية كبرى في الإسكندرية بمسرح (زيزنيا) (مساء الثلاثاء ٧ يونية سنة ١٩٠٤م)، جعل موضوعها (الموقف السياسي لمصر، وواجبات المصريين) بدأها بقوله:

«سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

لقد وقفت بينكم هذا الموقف مرارًا، وعرضت عليكم آرائي في شئون الوطن ومصالحه تكرارًا، ولكني لا أظن أن الحوادث دعت المصريين في وقت من الأوقات للنظر في حاضرهم ومستقبلهم واستحثتهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه وما يصيرون إليه كما دعتهم في هذا الوقت الذي خاب فيه بعض الآمال، وتساءل الناس: هل قضى علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات، وطريق النجاة من ذلك الحكم الأجنبي وتلك السيطرة الإنجليزية». ثم تكلم عن «الاتفاق الودي»

وائتمار إنجلترا وفرنسا بمصر ومراكش، وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، ثم عرج على سياسة الاستسلام التي يسلكها وزراء مصر وكبراؤها، وقال: إن هذه السياسة كان لها دخل في التحريض على هذا الاتفاق؛ لأنه لا يوجد في العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلامًا أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها[1]، فإذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضي وروابطه؛ وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة؛ لأنه مهما كان ذلك الغير مقصرًا في واجباته الأدبية ومخالفًا لتقاليده التاريخية، فإنه دون رجالنا تقصيرًا ومخالفة».

واتخذ من عقد الاتفاق الودي دليلًا ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسي، فقد بطلت هذه الدعوى، بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لإنجلترا، ونحن على حالنا ندافع عن المبادئ التي أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة إلى اليوم.

التضحية والثبات

ثم دعا إلى التضحية والثبات قائلًا:

«إن الذي يسمع صوت ضميره مناديًا في كل لحظة وآن بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التي لا شرف له إلا بها ولا حياة بغيرها، ولا رفعة بدون رفعتها، ولا مجد إذ زال مجدها، إن الذي يسمع ذلك الصوت ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع، ولا يخشى السباب والمطاعن؛ بل يسير في طريقه ناظرًا إلى الغاية التي طلبها والبغية التي تعلق بها، واجدًا من سهام الأعداء ما يجده الجندي في جراح الحرب من شرف وفخار».

---

(١) كانت وزارة مصطفى باشا فهمي تتولى الحكم في ذلك العهد منذ نوفمبر سنة (١٨٩٥م).

الوطنية لا تنثني أمام العقبات

«سخر أعداؤنا من الوطنية التي ننادي بها وندعو الأمة إليها، وقالوا ما شاء الحقد والعداء، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جاز له أن يقول فيها ما قال مالك في الخمر؛ ولكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة، أو وسيلة للكسب تنقضي بانقضائه، إنما الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته، فإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس العالي وتباهينا به ورمينا كل من جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس، ونقول لهذا الوطن الأسيف: كلما تمكن العود منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا نحوك واشتد تمسكنا بحقوقك.

أجل أيها السادة! لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة، ولا معنى للعيش بدونها، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها، لقد كانت أمم أخرى أتعس منا حالًا، ودوننا رقيًّا وتقدمًا، يحكمها الأجنبي بيد من حديد، ولا تجد من أفرادها عالمًا يرشدها أو كاتبًا ينصحها أو مربيًّا يقودها، ثم ناداها منادي الوطنية وظهر فيها من ينبهها إلى هذه القوة الكامنة وذلك الكنز المدفون، فقامت بعد الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد، وعملت بعد الكسل والخمول وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذاقت مرارة الظلم والاضطهاد الأعوام والقرون».

الاستقلال والاحتلال

«يسألنا أنصار الاحتلال في الصباح والمساء، ماذا عملتم بوطنيتكم، وأي فائدة عادت على القطر منها؟ وهل رددتم إليه حقًّا أو استرجعتم منصبًا، أو أوقفتم الاحتلال في طريقه وحولتم تياره الجارف؟

يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريرًا بالأفهام، وهم يعلمون أننا لم نكن وزراء للبلاد بأيدينا الحل والعقد، أو ساسة في المناصب نناقش الاحتلال في مصالح الوطن ومطالبه، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعينا إليها، نقول لها على مسمع من العالم كله أنها لا تكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة، إلا إذا كان الشعور الوطني متمكنًا من نفوس صغارها وكبارها؛ لأنه أقوى الروابط، وجامعة الجوامع، نقول لها ونكرر القول: إن مصدر المصائب التي حاقت بوادي النيل كان جهل أمته لحقوقها وواجباتها، وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطني فيها، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا أن الاستقلال وحده هو الذي يحمي البلاد والممالك من كل بلاء، ويدفع عنها اعتداء الغير، ويرقي ملكة الأفراد، ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية، نقول لها: إن الاحتلال عار على الأمة وشنار على كل واحد من أبنائها، وإنه حجة إلى عدم كفاءتها ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها، وإن الإنجليز لا يعملون لصالحها مهما ادعى المدعون؛ لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى، وأن مغتصبًا لملك سعى لرده إلى صاحبه».

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطني الذي دب في الأمة، وما ظهر من نتائجه في رقي الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومي، وبذل الأفراد والجماعات أموالهم للمنشئات العامة، وظهور قوة الرأي العام في اتجاهه إلى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال.

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمي إليه من قتل الروح الاستقلالية في الأمة، قال:

«إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوي الأفكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونها على منافعها وطرق الارتقاء، فماذا عمل

المحتلون لذلك؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رقوا البلاد وأخرجوا لها رجالًا قادرين على قيادة أمورها وإرشادها؟

أليسوا يحاربون فضلاءها وكل ذي استقلال فيها ويمسخون التعليم في مدارسها مسخًا، ويمحون تربية النفس محوًا، ويقتلون لغة البلاد قتلًا، ويضطهدونها في شعورها ووجدانها؟ فماذا ينفع المال إذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك؟».

الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة إلى الاتحاد وبث روح الوطنية في النفوس، والجهاد في سبيل الاستقلال؛ قال:

«أيها السادة، إن ازدياد الثروة المصرية، وانتشار التربية والتعليم، وارتقاء الصحافة وغير ذلك من الأمور الحيوية التي ينشرح لها الخاطر وتنبسط لها النفس، لا ترفع للأمة مقامًا ولا تعلي لها شأنًا إذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجماهير، وغذاء الأرواح والنفوس، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه الاستقلال؛ لأن الحياة بغيره عناء وعذاب، وإنكم مهما بلغتم من سعة العيش ووفرة المال وارتقاء في المراتب لا ترى فيكم الأمم الرشيدة إلا أنها قاصرة إذا دام الاحتلال، فاعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التي تترنمون بها على الدوام، ولا تتركوا محبته كأثمن وأقدس ميراث، ولا تعدوا السنين عليه؛ لأن ما تجدونه طويلًا في حياة الفرد منا يعد يومًا أو بعض يوم في حياة الشعوب، وثقوا بأننا بالغوه؛ لأن الله الذي يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه، يكافئها برده متى اتحدت واتبعت إرادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للإنسان».

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والإعجاب والحماسة والهتاف العالي من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة

الرائعة، وشكرهم شكرًا مكررًا قائلًا لهم: «إني أعد التفاتكم إلي وتعضيدكم لي دينًا عليَّ، ربما أعجز عن الوفاء به؛ ولكني أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون في المستقبل كما كنت في الماضي: خادم الوطن الأمين».

وكان الاجتماع نجاحًا باهرًا للفقيد، كما كان لخطبته دوي كبير في المحافل والدوائر الوطنية والأوربية؛ لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي.

وقد وصفت جريدة (البصير) التي تصدر بالثغر الاجتماع والخطبة بقولها: «كانت ليلة أمس من الليالي المشهودة في مدينة الإسكندرية، وذلك للخطبة الغراء التي ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل، ولقد كان حضورها عديدين جدًّا، حتى لا موطئ لقدم، ولكن النظام كان شاملًا والسكوت تامًّا، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن اتساقها بحفظ ذلك النظام، ولعل هذا الوصف خير ما يقال فيها». ثم جاءت على مشتملات الخطبة، وختمت الكلام بقولها: «وعلى الجملة فإن الخطبة بمعناها كانت من خير ما يقال في هذا العهد، وهي جديدة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل، فنرى في بلادنا أكثر من منشاوي باشا، وأكثر من جمعية العروة الوثقى، وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيبًا، وعند ذلك يتم كل مأمول بإذن الله وبشريعة التدريج».

وتردد صدى الخطبة في الخارج، نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافًا من مراسلها بالإسكندرية جاء فيه:

«الإسكندرية في ٨ يونية سنة ١٩٠٤م

ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصري وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى في الإسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد على ثلاثة آلاف شخص، وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد، وأكد الخطيب أن المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الأهلي أكثر من ذي قبل، وقال: إن مصر بالغة مكانتها في العالم عاجلًا أو

آجلًا بفضل التعليم والتقدم الفكري. وقد صفق الحاضرون تصفيقًا حادًّا لمصطفى كامل باشا الذي يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية».

ظهور كتابه عن اليابان (الشمس المشرقة)

وفي (يونية سنة ١٩٠٤م) ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان، وضعه لمناسبة الحرب الروسية اليابانية، وما ظهر فيها من عظمة اليابان التي بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها. قصد الفقيد من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة اليابانية التي لم تكن شيئًا مذكورًا أيام كانوا أصحاب الحول والطول، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم، ووثبت إلى الصف الأول من الأمم القوية العالية المقام، وأراد أن يبين للشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية.

الاحتفال بعرض الجيش الإنجليزي في ميدان عابدين

كان من عادة الإنجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا، ثم عيد الملك إدوارد السابع بعرض الجيش البريطاني بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر، ولم يكن الخديوي عباس يحضر هذا الاحتفال؛ ولكنه بدأ يحضره لأول مرة في عيد ميلاد الملك إدوارد السابع يوم (٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤م)، إذ جاء الميدان مرتديًا بدلة التشريفة الكبرى، يحيط به ياورانه، ووقف تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذي يمثل الاحتلال الأجنبي تمثيلًا مهينًا للكرامة القومية أثر أليم في النفوس، وكان موضع انتقاد الوطنيين في مجالسهم وأحاديثهم، مما اضطر (المعية)[1] إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضوره إلى مصادفة وجوده بسراي عابدين يوم العرض، قالت فيه:

(١) كانت كلمة «المعية» تطلق وقتئذ على حاشية الخديوي.

«لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالي الخديوي في صبيحة أمس سراي عابدين العامرة حيث ينعقد مجلس النظار برياسة سموه ويتناول حضرات العلماء الأعلام طعام الإفطار على المائدة، ثم يتلو ذلك استقبال المهنئين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم. وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلالة ملك الإنجليز رأى الجناب العالي حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنويًّا في رحبة السراي لمناسبة هذا العيد، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديوي السابق، وما وصلت هذه النية إلى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديوي ليستعرض الجنود الإنجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح... إلخ».

والأمر الطريف في اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديوي الاحتفال إلى (المصادفة)، كأنه لم يكن معلومًا من قبل أن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملك إدوارد السابع، وأن حفلة العرض ستحصل فيه، وأضعف من ذلك في الاعتذار أن البلاغ الرسمي يلمح إلى أن الخديوي توفيق باشا كان يحضر العرض، وهو عذر غير مقبول؛ لأن الخديوي عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش، ولم يفكر في اتباع عادته في حضور العرض البريطاني إلا في سنة (١٩٠٤م)، وهذا يدل على تغيير جوهري في سياسته عقب الاتفاق الإنجليزي الفرنسي وجنوحه إلى الخضوع للاحتلال، تلك السياسة التي بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة (١٨٩٨م)، ثم ظهرت بمظهرها العلني في حضوره استعراض جيش الاحتلال، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولاءه للاحتلال وسياسته.

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة في بلاغ المعية لا صحة له، أن الخديوي قد حضر العرض البريطاني للمرة الثانية في (نوفمبر ١٩٠٥م)، ووقف تحت العلم الإنجليزي، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته.

قال (اللواء) في هذا الصدد:

«وهذه هي المرة الثانية التي وقف فيها سمو الخديوي هذا الموقف بصفة رسمية، ولما جرى ذلك في العام الماضي وشعرت «المعية» بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة في سياسة مصر نشرت في الصحف بلاغًا (وأتت على نصه)». إلى أن قال: «هذا بلاغ السنة الماضية، وإذا كان من الصعب تحميل «المصادفة» مسئولية هذا الحادث مرتين، فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغًا في هذا العام وتفضل السكوت على الكلام».

ثم وقعت حادثة دنشواي في (يونية سنة ١٩٠٦م)، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتداد السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل، فكان من نتائج ذلك عدول الخديوي عن حضور العرض في (نوفمبر سنة ١٩٠٦م، ونوفمبر سنة ١٩٠٧م)، وقد علقت الصحف الأوربية على هذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية؛ قالت جريدة (الإمبرسيالي) الإيطالية في هذا الصدد: «ولعل سمو الخديوي أراد بإطالة إقامته في الإسكندرية العدول عن الخطة التي اتبعها في عام ١٩٠٤م بعد أن لبث على عرش مصر اثني عشر عامًا، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجاتها؟».

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الإنجليزي الفرنسي أن أخذ اللورد كرومر يظهر بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ في البلاد بعد أن كان يكتفي بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها.

ومن علامات هذا المظهر الجديد زياراته لعواصم المديريات، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالحفاوة والإكرام، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول.

زار الفيوم في (فبراير سنة ١٩٠٥م)، فقابله المدير محمد بك محب والأعيان والعمد، وخطب فيهم، متكلمًا عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتباره صاحب

النفوذ الفعلي فيها، فتكلم عما تبذله الحكومة في مكافحة الجراد وإبادة دودة القطن، وإنشاء صناديق التوفير، وما إلى ذلك من المسائل الداخلية الحكومية، وشكره أحد الأعيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التي ألقاها عليهم، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميري، والمدرسة الأميرية، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدي؛ وكان في انتظاره أعيان المدينة، ثم المحكمة الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة، ثم شرب الشاي في دار المدير، وكان الموظفون وكبار الأعيان في ركابه.

وكان الأعيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل في إظهار ولائهم له، فلما أبرم الاتفاق الودي سفروا في ولائهم وتسابقوا في ابتغاء الزلفى لديه.

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية، المعرقلة للحركة القومية، كتب اللواء في هذا الصدد بقول[1]: «ظهر جناب اللورد كرومر أول الأمس بمظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال إلى اليوم، حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية، وتقدم بنفسه إلى الجماهير يخاطبهم في الشئون العامة ويلقي عليهم النصائح والأوامر، ويجمع العمد والأعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد، فجناب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضى عهدها ومضى زمانها، وأن المحتلين يقدرون المسئولية ويتحملونها جهارًا».

وكتب مصطفى كامل في لواء (٧ فبراير سنة ١٩٠٥م) ينعي هذه الحالة بقوله:

«لا يسع المصري المحب لبلاده إلا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذي وصلت إليه البلاد، ويندب استقلالًا مزَّقته يد الزمان، وإني لا أدري بأن آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر، وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك؟ وهل شعروا بأنه

---

(١) عدد ٦ فبراير سنة (١٩٠٥م).

بحركته هذه أعلن موت السلطة المصرية؟ اللّهم إني لو كنت بين تلك الجموع التي أصغت لأقواله لذبت أسى وكمدًا وقلت: يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا؛ لأن وقفته هذه ليست إلا إعلانًا قطعيًّا بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهي الذي لا يعارض في شيء».

واستمر اللورد كرومر في رحلته الاحتلالية، فزار المنيا فأسيوط فأبو تيج فنجع حمادي، حيث كان يستقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة.

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج «الاتفاق الودي» أن تقارير اللورد كرومر السنوية التي كان يرفعها إلى الحكومة البريطانية عن شئون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الإنجليزية، وكان يخوض فيها في كل ما له مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال في الحكومة، وكتب في تقريره الذي ظهر في مارس سنة (١٩٠٥م) أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة في مصر تمامًا، فلما عرفتها علمت أن وعدها كان في غير محله، وأن تنفيذه يفضي إلى أضرار جسيمة!!

تعيين ياور إنجليزي للخديوي

وبلغ من تدخل الإنجليز في المعية الخديوية واستسلام الخديوي عباس لسياسة الاحتلال أن عين في تلك السنة سنة (١٩٠٥م) ياور إنجليزي للخديوي وهو الكولونيل «وطسن باشا».

ظهور كتاب (المصريون والإنجليز)

Egtption et Anglais

جمع الفقيد في صيف سنة (١٩٠٥م) خطبه التي ألقاها عن المسألة المصرية، والرسائل التي تبودلت بينه وبين كبار الساسة، وترجمها إلى الفرنسية، وطبعها بباريس كتابًا ظهر في ديسمبر سنة (١٩٠٥م) بعنوان (المصريون والإنجليز) في ثلاثمائة وعشرين صفحة، ثم وزعه في كل جهات العالم؛ ليعرف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية، وميول المصريين، وحقيقة مقاصد الحزب الوطني، فكان خير دعاية عالمية للمسألة المصرية، وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة هذا الكتاب، ومما قالته عن الفقيد:

«إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد «اليأس والقنوط» و« عدم الاكتراث بشئون البلاد» و«فلة الوطنية»، تلك الآفات الثلاث التي تهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها، والتي هي أشد خطرًا على الأمم من المغيرين».

وقالت في موضع آخر عن الحركة الوطنية:

«إني أنا التي رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها، وأعتقد بخصوبتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها، كما يرى الإنسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة في أسابيع معدودة بفضل فلاحيها».

وكتبت الصحف الأوربية نبذًا كثيرة عن الكتاب ومناحيه، ومن أبلغ ما نشر في هذا الصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية في جريدة (الجورنال دي كير) بدأها كاتبها بشعار الفقيد (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا)، ومما قال فيها: «لا أريد أن ألخص الكتاب أو أنتقده اليوم، وليست هذه مهمتي، فإني سائح أجوب هذه البلاد؛ ولكن مصر ليست الديار التي يجوبها الإنسان دون أن يتعلق بها، ولقد أكد لي البعض أن من يرى مصر مرة لا بد أن يعود إليها، فهل سأكون أنا استثناء لهذه القاعدة؟».

إلى أن قال: «قرأت هذه الخطب التي ألقيت الأولى منها عام (١٨٩٥م)، والأخيرة عام (١٩٠٤م) فهي عشر سنوات من حياة الخطيب، جمعت واختصرت في هذه الصحائف، وإن عشر سنوات قضيت في العمل والسعي والجهاد بلا ملل ولا خور في العزيمة لجدير بأن يقف الإنسان أمامها، ولقد وقفت بإزائها واختبرتها وقلبتها، وما رأيت فيها وما استطعت أن أرى إلا الإعراب عن أشرف وأطهر وطنية، إن فيها قوة وحدَّة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها، وتشعر اليد بارتعاش عند تقليبها، وإن القارئ عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها في الحقيقة؛ بل يسمعها، لأنها بالغة الغاية في الحياة، ورغمًا عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة؛ ورغمًا من الحدة التي تلازم كل حب شديد، قد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائمًا على الاعتدال، ويقف عند الحد الواجب، فهو حاد اللهجة، وفي عباراته حركة شديدة أحيانًا، بحيث يشعر بأنها تجري وتعدو وتدوي كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج، فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء، ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود، فعبارات الخطيب تغلي كالماء ثم تجري واضحة رائقة تطرب القلوب، وتنزل برفق ويتسع مجراها، وتروي وتلطف ما تمر عليه. وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه، فترى من أول خطبة إلى آخر خطبة ضميرًا واحدًا، وروحًا واحدة، ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة في غير موضعها، وإلى مثل هذا ينتهي التعقل والصراحة الطاهرة، وهو مثال يكاد يكون وحيدًا، وسيكون لهذا الكتاب في أوربا رنَّة طويلة دائمة؛ لأن كل ذي عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها هناك. قد يختلف البعض مع الخطيب في أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكمًا مخالفًا لحكمه، ولكن إذا كان هذا الرجل وطنيًّا يقول وينادي بكل قوته بحبه لبلاده، ويعلم الجميع أنه يهبها

شبابه وحياته[١]، فلا جدال في أن القوم في أوربا يطأطئون له الرءوس احترامًا له، ولو كانوا خصومًا له أو أعداء».

إلى أن قال: «إنَّ الوطني المصري إذا أفلح لا يفلح بغير تعريض نفسه للخطر، فهو معرض له أكثر من الأوربي لضعفه وقلة الشعور الوطني في بلاد لم تتعود حكم نفسها بنفسها، نعم هو معرض للخطر أكثر من الأوربي، وإن عمله أتعب وأصعب، فهو لا يجب عليه فقط أن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوربي؛ بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير وتعليمها وتدريبها على الفكر والإحساس، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر نحو بني وطنه ونحو الأجانب، وإني أتوجع لعنائه بقدر إعجابي به، ومهمته لا تعود عليه الآن بالفائدة، فلا بد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن، وأخلاق قوية متينة، ليستطيع شاب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئًا آخر سوى عظمتها وسعادتها واستقلالها!».

(١) نشرت هذه المقالة في يناير سنة (١٩٠٦م)، وتوفي الفقيد في فبراير سنة (١٩٠٨م).

obeikan.com